الشاهد النحوي مصادره وأهميته في الدرس النحوي العربي

د.عمار مصطفاوي

جامعة وهران

1. أهمية الشاهد النحوي

يعد الاحتجاج بالشاهد النحوي من أبكر صور الدراسات اللغوية العربية وذلك لما له من أهمية في إبراز المعاني والدلالات المختلفة من جهة وفي التأصيل للقواعد التي بنيت عليها العربية من جهة ثانية وعندما نعود إلى كتب معاني القرآن الكريم مثلا فإننا نلاحظ أنها جمعت بين تحليل الآيات القرآنية تحليلا لغويا أولا ثم ذكر ما تعلق بها من شواهد نحوية تعين على تطوير هذا التحليل، وكذلك فإن كتب إعراب القرآن الكريم تعتبر فرعا من المعاني وذلك بتناولها بعض مقاصد المعاني، ويتضح من عناوين أن أصحاب اهتموا كثيرا بالإعراب، وإن اعتناءهم بالشواهد النحوية يأتي في مقدم ذلك الاهتمام، نلاحظ ذلك في " إعراب القرآن للزجاج ت **310**هـ" وكذلك أبي جعفر النحاس (ت.**338**هـ).

و قبل ذك كله فإننا إذا عدنا إلى كتاب سيبويه (ت **182**هـ) والذي يعتبر دستور النحو العربي، جمع فيه أفكار أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي واجتهاداته هو، فإننا نجده قد ضمنه من الشواهد القرآنية والشعرية والنثرية وبعضا من لأحاديث النبوية.

بحث بلغ عدد الشواهد فيه " **447** آية" وبلغ عدد الأبيات الشعرية " **1500**بيتا" ومن هنا نلاحظ تقديم سيبويه للشعر العربي على القرآن الكريم في موضوع الاستدلال و الاستشهاد ، وهو في ذلك يجاري مدرسة البصرة التي تعتمد في تأصيل للقواعد على الشعر العربي الجاهلي ثم الإسلامي أولا ثم القرآن الكريم وبخاصة ما كان متوافقا مع الاقيسة التي وضعوها و إلا فإنهم يعمدون إلى التأويل.

فأهمية الشاهد النحوي تعتبر جوهرية وأساسية في كل ما له علاقة بالدرس اللغوي و النحوي، وذلك إن على مستوى التفسير أو التعليل أو التحليل وإن على مستوى التأصيل للقاعد اللغوية والنحوية.

فما هو الشاهد النحوي؟

الشاهد النحوي هو الخبر القاطع الموثق يستعمله اللغوي أو النحوي أو المفسر مرويا عن الناطق باللغة موضوع الدراسة ويكون في العربية أية قرآنية أو يبت شعر أو حديثا نبويا.

وهو أي الشاهد قول عربي لقائل موثوق بعربيته يورد للاحتجاج والاستدلال به على قول أو رأي وهو بذلك يختلف عن المثال الذي يأتي كدليل على القاعدة، والمثال " ما ستدل به على القاعدة النحوية من جملة أو تركيب أو كلمة: فقولهم مثلا: أعجبني زيد علمه أو حسنه أو كلامه مثال لبدل الاشتمال "[1]، فالشواهد إنما سيقت في الأصل لإثبات صحة القاعدة وأما الأمثلة فيصوغها المصنف ليوضح بها القاعدة، وتعد بمثابة الجانب التطبيقي الإيضاحي للقاعدة، وليست دليلا على صحتها"2ومن المفيد أن نشير إلى أن المثال يعتبر تمهيدا لتوضيح قاعدة ما وإن الشاهد تأصيلي وتوكيدي ثم إن الشاهد النحوي الذي ما زال معتمدا في معظم دراساتنا ومناهجنا الدراسية ينتمي في معظمه إلى العصور التي يحتج بكلام العرب فيها والتي حددها كثير من القدامى وبخاصة البصريين منهم بالقرن الثاني الهجري بالنسبة للحضر والقرن الرابع بالنسبة للبدو، كما اعتمد ذلك مجمع اللغة بالقاهرة والشواهد النحوية هي الأساس الذي يقوم عليه النحو العربي وأصوله، ويستوي فيها الشاذ القليل والكثير، وذلك تبعا لأوجه الخلاف في مسائل النحو وقضاياه بين المدارس المختلفة.

2. الشواهد النحوية أنواعها ومصادرها

1.2 القرآن الكريم:

يعتبر القرآن الكريم أفصح الكلام العربي وأبينه على الإطلاق وهو بذلك يعد في مقدمة أنواع الشواهد النحوية واللغوية العربية وهو الذي تطمئن إليه النفوس والأخذ به في مجال الدرس النحوي على أساس أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

و قد اختلف النحاة في موضوع الاستشهاد بيات القرآن الكريم وقراءاته فالكوفيون مثلا يعتمدونه بشكل مطلق ويقدمونه على غيره من كلام العرب شعره ونثره، جاهليه، واسلاميه. يقول الفراء: "إتباع المصحف إذا وجدت له وجها من كلام العرب وقراءة القراء أحب إلى من خلافه"[3] ويقول أيضا:" إن لغة القرآن الكريم أفصح أساليب العربية على الإطلاق وإن الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر[4] وأما البصريون الذين ولدت وتقررت في موطنهم الدراسات اللغوية عموما فإنهم يتحفظون قليلا في الأخذ بالقرآن الكريم وبخاصة في اعتماد القراءات التي طعنوا في بعضها، وأخضعوها لقواعدهم اقيستهم ، فما وافق ذلك اعتمدوه وأخذوا به وما خالفه طعنوا فيه ورفضوا واعتبروه شاذا لا يقاس عليه وقد عمدوا إلى تأويل ما لم يتوافق مع قواعدهم وهم بذلك يقدمون القياس والقاعد على نص القرآن الكريم.

نلاحظ على البصريين أنهم في بعض استشهاداتهم قد أخذوا بالأشعار المجهولة وقدموها على قراءة مشهورة.

من ذلك أن المبرد ردد قراءة حمزة في قوله تعال:﴿ اَتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾[5] حيث عطف على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض الذي هو الباء فقال:" لا تحل القراءة بها"[6] .

و قد قرأ بها ابن مسعود وابن عباس وقتادة هذا لا يعني أن المبرد لم يستشهد بالقرآن الكريم كله ومع ذلك فأننا نراه قد استدل بنحو **500** شاهد قرآني وكذلك فعل سيبويه من قبله.

و أمكن الاعتذار لبعض تصرفات البصريين بأن كان توجههم العام هو رفع مكانة القرآن الكريم والبعد به عن الجدل وأسبابه واحتراما له وتقديسا .

2.2 الحديث النبوي الشريف:

يهتم النحاة من حديث النبي ﷺ ما كان قولا، لأن القول والاستشهاد به هو موضوع النحو ومرجع الأحكام والاستدلال به.

اختلف أهل اللغة والنحو حول الشاهد من الحديث النبوي، بين مجيز ومنكر فمن المجيزين: جمهرة من الكوفيين وكثير من أهل المذهب ألمغاربي الاندلسي كابن خروف (610هـ) وابن مالك (672هـ) وغيرهما ومن المنكرين، ابن الضائع (680هـ) وأبي حيان الأندلس (745هـ) وكذلك السيوطي (911هـ).

و هناك طرف وسط متحفظ يجيز من الحديث ما صح لفظه كما فعل أبو إسحاق الشاطبي(790هـ) وبعض البصريين والكوفيين نلاحظ في موضوع الاستشهاد بالحديث أن المنكرين لاعتماده يتحججون بأن بعض أحاديث الرسول صلة الله عليه وسلم رويت بالمعنى يقول أبو حيان: " إنما ذكر العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول(ص) إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجري القرآن الكريم في إثبات القواعد الكلية"[7].

غير انه يمكن الرد على هذا بان الحديث النبوي تم تدوين معظمه قبل نهاية عصر الاحتجاج كما هو معروف ثم إنهم قد احتجوا بأن معظم رواه الحديث أعاجم، وكذلك فإن معظم علماء اللغة أعاجم سيبويه الكسائي الفراء وغيرهم كثير، ثم إن كثيرا احتجوا بمرويات حماد الراوية وكان وضاعا ولحانة نشر فقط إلى أنه بالرغم من ذلك فإن كثيرا من علماء اللغة والنحو قد استشهدوا بالحديث أمثال سيبويه والمبرد وابن الانباري في إنصافه وحتى السيوطي الذي اعتمد أكثر من 155 حديثا

3.2 الشاهد من الشعر.

تعتبر الشواهد الشعرية أكثر عددا من غيرها فالشعر " ديوان العرب وخزانه حكمتها ومستنبط آدابها ومستودع علوم"[8].

و به " حفظت الأنساب وعرفت المآثر وتعلمت اللغة"9.

و الأشعار التي يحتج بها، جاهلية وإسلامية، فالأولى معتمده ومقدمة وغير محدودة بزمن أما الثانية ونعني بها الأشعار الإسلامية فقد اختلفوا في حدها الزمني تبعا لاختلاف المكان.

و نظرا لهذا الاختلاف والتباين في الحد الزماني لكلام العرب الذي يجوز الاستشهاد به، فقد اتخذ مجمع اللغة العربية في القاهرة قرارا مفاده أن العرب الذين يوثق بعربيتهم ويستشهد بكلامهم هم عرب الأمصار إلى نهاية القرن 02هـــم أهل البدو من جزيرة العرب إلى آخر القرن الرابع 04 هـــ نشير إلى أن سبب التدقيق في الحد الزمني هو ظاهرة اللحن وتضارب المذاهب والاختلافات السياسية والمذهبية.

و أخيرا نلاحظ في تعاملنا مع لغتنا العربية أن هناك فجوة سحيقة بين العرب عموما ولغتهم وذلك باعتبار أن علاقتنا بهذه اللغة خارجية وبشكل مجرد في كثير من الأحيان، في حين وجب أن تكون اللغة حقيقة وعنصرا مكونا للشخصية وعندها يكون ذوبان اللغة في الإنسان أمرا إيجابيا. مما يساعد على تطورها تبعا لتطور هذا الإنسان، وعندنا لم تعد اللغة وسيلة للخلق والإبداع والتماسك والانسجام الثقافي والاجتماعي وذلك نتيجة عدة عوامل ويأتي في مقدمها على المستوى التعليمي على الأقل اعتمادها على الدرس التقليدي الذي يعتبر أساسا تبني عليه لا خطا أحمر لا يجوز تجاوزه.

ثم هناك والتراكمات السياسية والاجتماعية التي أثرت سلبا على نمو وتطور اللغة العربية بدءا من عصور الانحطاط إلى يومنا هذا، حيث أدى كل ذلك في المحصلة إلى تدني مستوى التحصيل اللغوي الناتج عن عسر المادة اللغوية التي تتعامل معها وذلك نتيجة الاختلافات بين المذاهب اللغوية والنحوية منذ وقت مبكر كما هو الشأن بين الكوفة والبصرة وكذلك بغداد والأندلس، الأمر الذي أدى إلى خلافات واضحة في مناهج الدراسة في وقتنا الحالي إن على مستوى التأصيل أو على مستوى الشواهد التي تعتمد من أجل هذا التأصيل والتقعيد.

بالإضافة إلى تدني المستوى التحصيلي الناتج عن تراكمات خلافية وغيرها نلاحظ على مستوى المشاعر النفسية تجاه اللغة العربية نوعا من العدائية من طرف بعض الذين هانت أنفسهم وانسلخوا عن جذورهم فكانت خصومتهم لكل ما له علاقة بالتراث العربي الإسلامي شديدة وفي مقدمة ذلك اللغة الحاملة والحافظة لهذا التراث.

لا ننكر أن الهوة اتسعت بين العربية وبين مستعمليها ولكن مع ذلك وبشكل موضوعي: إن العربية سهلة طيعة إلا على الغرباء الذين تعمدوا الاغتراب وإن صعوبة التعلم قد تكون أحيانا عيبا في المتلقي لا في المادة المتلقاة.

3. خاتمة:

وفي الختام نقول إن الشعور والإحساس بالانتماء الحضاري والاعتزاز بمقومات هذا الانتماء وفي –مقدمتها اللغة–يجعل كل عسير يسيرا و تتضاءل أمامه كل العقبات والصعاب.

إن أهمية الشاهد النحوي في العملية التعليمية كبيرة وذلك ما يوفره لنا من أساس نبني عليه قواعدنا ونطور به لغتنا عن طريق الأقيسة المختلفة التي تعتد بها اللغة العربية. وإن الشاهد النحوي رغم أهميته البالغة إلا أنه كان مجال اختلاف بين المذاهب المختلفة من حيث مصدره ومن حيث روايته وكذلك استعمالاته مما أدى إلى تنوع واختلاف في طرق الاستدلال مما أثر على العملية التعليمية بشكل واضح وأدى في كثير من الأحيان إلى صعوبة التبليغ والتلقي مما نتج عنه تدني مستوى التحصيل، فلا عيب إذ نادي البعض بضرورة إعادة النظر في أمر الشاهد اللغوي والنحوي ولنا في محاولات ابن مضاء القرطبي وأبي بكر الزبيدي الأشبيلي في الرد على النجاة وفي الواضح وتجديد النحو لشوقي ضيف وإحياء النحو لإبراهيم مصطفى أسوة حسنة نحو العمل على تسيير النحو بشكل إيجابي خدمة للعربية وأهلها.

ومن أجل تفعيل وتطوير النحو على مستوى الشاهد النحوي نقترح:

1- رفع الشاهد القرآني واعتماده أولا وتقدمه على أساس أنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من ولا من خلفه، ثم هو القاسم المشترك بين مستعملي العربية من المسلمين غير العرب.

2- إعادة النظر في الشاهد النحوي ورواياته وترك ما يتبين فساده.

3- الاجتهاد في التقليل من الشواهد الشواذ وما هو من قبيل لغات القبائل وتجويز الاستشهاد بالمولد و الحديث على اعتبار سنن التطور الدلالي تغيراتها.

4- التركيز على حفظ القرآن الكريم وحفظ الحديث النبوي: خدمة العربية وخدمة للإسلام وشعائره.

5- التعامل مع اللغة على أساس أنها جزء من هويتنا وشخصيتنا وكذلك التعامل مع النص اللغوي الآدمي على أنه نص يخضع للتغيرات الدلالية وأن استعمالنا لهذا النص يكون وفق هذه المتغيرات خدمة للغة العربية وتطويرها.

6- احترام النصوص القانونية و القرارات الصادرة عن المجامع اللغوية بخصوص تطوير اللغة ، و العمل على توحيد المصطلح و المناهج التعليمية في البلاد العربية و التعامل بإيجابية في هذا الاتجاه.

4. الهوامش:

(1) ينظر: معجم المصطلحات النحوية والصرفية ص 119. محمد سمير اللبدي

(2) النحو التعليمي في التراث العربي ص98–90: محمد إبراهيم عبادة

(3) معاني القرآن، أبو زكريا يحي الفراء ج1، ص 14.

(4) المصدر نفسه

(5) النساء الآية 1.

(6) شرح المفصل: ابن يعيش المجلد 3 ص 78.

(7) (خزانة الأدب ج1 ص 5) البغدادي

(8) كتاب الصناعتين ص 104. أبو هلال العسكري

(9) الصاجي ص 23 ابن فارس.

(10) الثالث ، المرجع السابق ، ص 1171.